سيدة القطط

سارة عبد الجواد

كعادتي كل يوم استيقظت مبكرًا، أعددت بعض الطعام وجهزت مشروبي الساخن ،أكلت سريعًا وشربت أسرع، ارتديت ملابسي في عجالة ونزلت الدرج، استقليت حافلة صغيرة ثم مترو الأنفاق وكعادته مزدحم، تتسابق صيحات البائعين لتفوز بالزبون، دومًا هناك من يتشاجر من أجل وجهة نظره التي يظنها دومًا صحيحة دون غبار، وهنا من يخرج عن شعوره، وهناك من يتجاهل الأحداث عمدًا.

نعم تلك هي حياتنا تحمل في طياتها الأنس والمشكلات، أخيرًا وصل القطار إلى محطتي، خرجت منه كمن دبت الحياة فيه ثانية، توجهت إلى عملي بإحدى الأحياء الراقية بالقاهرة. اشتهر الحي في نظري بنسائه اللائي دومًا يطعمن القطط ودومًا هناك قطط ، وطعام ودومًا وراء هذا المشهد امرأة.

كان لعملي بوابة مخصصة داخل إحدى العمائر القديمة بعد أن تعبر البوابة الثانية المخصصة لعملي تجد نفسك في حديقة واسعة تمر من خلالها إلى أن تصل للباب الخاص بالمكان، كنت أحب هذا الممر كثيرًا، أعني الممر بين البوابة الأولى - بوابة العمارة- والبوابة الثانية، كنت أحب الحديقة في أثناء الغروب دومًا تكون جميلة.

وفي يوم خرجت من باب المكان متجهة إلى الحديقة، مررت فيها ثم وصلت إلى البوابة وجدت بقايا (لحم دجاج غير مطهو) يا له من منظرٍ مقزز، تجاهلته وذهبت لما أنا ذاهبة إليه، وعدت فلم أجد شيئًا!

تكرر الحدث مرارًا إلى أن اعتدته، فأصبح لا هو بالمقزز ولا أنا أتذكره، يا لها من نفسٍ بشرية تستطيع أن تعتاد على كل ما هو غريب حينما يتكرر، إلى أن شعرت ذات يوم بصوت يأتي من خلفي، استدرت ببطء وخوف لأقترب من النافذة، كان الصوت يأتي من خلفها، خرجت إلى الحديقة لأجدها واقفة تتحدث إلى القطط وتطعمهم بقايا لحم دجاج غير مطهو على أحد ألواح الخشب.

رأيتها من بعيدٍ كانت هناك مسافة تفصلنا، ذهبت إلى رب العمل أخبره بما رأيت - كنت حادة النظر آنذاك- أخبرني قرار بشأنها تفاوضنا سويا، إلى أن توصل إلى حل يرضي جميع الأطراف، هي لن تخذل وهو يطمئن لدخولها، وأنا أكون أمينة ولا أقطع طعام القطط.

ذهبت ثانية إليها ألقى عليها التحية (السلام)، فردت بأحسن مما ألقيت، كان لذلك أثر في نفسي تجاذبنا أطراف الحديث لأخبرها بأننا سوف نغلق الباب دومًا ، وهي لن تستطع الدخول ثانية لكن سنضع قطعة من الخشب بجوار الباب من الداخل، وعليها أن تطهو الطعام وتضعه من خلال فتحات الباب.

قبل أن أخبرها بكل هذا كانت تخبرني بأنها تحب القطط كثيرًا، وأن لها أخت قعيدة تحبهم أيضًا، فهي بمثابة عائلتها وأطفالها كما أن القطط تشاركها تلك

المشاعر، فهي لم تتزوج وليس لها أحد، وافقت على مضض خشية أن نغلق الباب في وجهها تمامًا.

مرت أيام كثيرة اعتدت عليها وعلى رؤيتها تطعم القطط، واعتدت على كلامها عن القطط وكأنها تتحدث عن بشر مثلنا، وأصبحت بحكم العادة أشاركها وأشعر بما تقول.

كانت في كل مقابلة تعانقني بدفء وتقبلني بحنان، كنت أتحدث عنها مع بعض زملائي في العمل، كانوا يرونها وبالتالي يعرفونها من بعيد وكانوا يتعجبون من صنيعها، وكنت أفهمها جيدًا وأبغضها أحيانًا أخرى، توسع رب العمل في عمله فاتخذ مكانًا آخر يساعده في تكوين صورة أفضل لعملائه، ولذلك أصبح المكان فرع ثاني تابع للإدارة في الفرع الجديد وكانت هي كما هي كل الأشياء تتغير وكأنها تتشابه مع الشمس في ثباتها.

تغير شكل المكان مع التوسع ، كما أن رب العمل تشارك مشروع يهتم بالأطفال في ذلك المكان، وبحكم المساحة كتب للمشروع الاستمرار. أصبحت القطط لا تظهر إلا نادرًا حتى لا يطاردها الأطفال، تعرفت القطط إلى الأطفال والعكس بالعكس، وكعادة الأطفال في النداء (يا قطة تعالي)، كانوا ينادون حينما يرون القطط أو حتى إن غابت القطط لفترة طويلة.

في يوم لمحت القطط تلعب وتقفز حول إحداهن ، كنت أسير ذاهبة إلى المقر الجديد لـ تلتفت هي بعد أن ثبت نظري نحوها لأجدها هي عانقتني وقبلتني وسألتني

عن أخبار عائلتي، واعتدت بعد ذلك على تكرار السؤال، أصبحت أشتاق إليها و أشتاق إلى السلام بيننا وحديثنا سويًا.

مرت بضعة شهور قبل أن نتقابل قدرًا ، لتخبرني أثناء حديثها بأنها ذاهبة ولن تعود، لأسألها:

-ماذا تقصدين أ تهاجرين خارج البلاد؟!

-فتخبرني: أنها ذاهبة لأداء مراسم الحج. فسألتها: لما لم تعد تأت تطعم القطط، فلفت نظري أننا أغلقنا منافذ الباب، ولذا هي لم تعد تأت.

-تسألني لما فعلتم هذا؟ فأجبت بأننا أصبحنا مسؤولين عن الكثير من الأطفال، ونخشى عليهم إن أحدهم مد يده بطعام من الخارج ملوث أو ما شابة، لذا قررنا غلق المنافذ، ولكن هناك جرس على الباب إن أردت ضغطت عليه ونفتح لك البوابة.

بعد ذلك اللقاء انشغلت في عملي، قابلت العديد من النساء خلال عملي والأطفال، وفي غمار عملي والحياة تناسيت ذلك الحوار ولكن من حين لآخر كنت أتذكر جملة واحدة:

-" أنا ذاهبه ولن أعود "!

كنت أستغفر الله كثيرًا محاولة طرد وساوس الشيطان .

كثُر الأطفال لدينا وكثر فتح البوابة في أوقات معينة وغلقها أيضًا، ولكن في بعض الأوقات التي ما يندر فيها فتح البوابة كنت أحب أن أحتسي قهوتي بالحديقة على إحدى ألعاب الأطفال، وكنت أتحرك ذهابًا وإيابًا وفي يدي فنجان القهوة

الذي دومًا يساعدني على اتخاذ القرارات اللازمة، ويجعلني أفكر أفضل وأن أبدو أكثر استيقاظًا وإفاقة.

في يوم من الأيام خرجت كعادتي وفي يدي فنجان القهوة وكنت أتحرك كالمعتاد ، لاحظت أن هناك عينان تنظران لي من وسط الأشجار، البوابة مغلقة بإحكام ولا أحد سواي بالحديقة ، من أين أتت تلك العينان، كذبت عيني وقولت أني أصبحت ضعيفة الإبصار وأني يخيل لي أشياء كثيرة بسبب الإرهاق في العمل، تكررت رؤيتي للعينان كثيرًا وكثيرًا، إلى أن جاء يوم ورأيت تلك العينان في وقت فتح وغلق البوابة كثيرًا، وكان هناك زميلي في العمل يجلس بجواري فقلت له:

- يخيل لي أن هناك عينان فقال وأنا أيضًا، ربما فتحت إحدى منافذ البوابة فأصبحنا نرى أحدهم بالخارج وكأنه وسط الأشجار.

ذهبت لأتأكد من حقيقة ما أخبرني به ، بالفعل قد وجد قطع صغير بتلك القماشة التي نغطي بها منافذ البوابة، ولكنه صغير جدًا، حسنًا سأمزق تلك القماشة و أخلعها من البوابة وسنرى إن كنت سأرى نفس العينان أم لا؟!

لم يحدث بعد ذلك أن رأيت عينين وسط الشجر، إلى أن جاء يومًا تذكرتها جيدًا فذكرتها هناك عند الزميل ، فقال لي هذه المرأة توفت، لم تعد من الحج كما أخبرتك، صدمت كثيرًا ودعوت لها كثيرًا، ومرت الأيام والشهور، وفي يوم كنت هناك في الفرع الجديد أنجز بعض الأعمال لأعود إلى المكان الآخر، ودخلت من البوابة الأولى الخاصة بالعمارة القديمة لأجد هناك امرأة تطعم القطط وتتصرف القطط كما كانت تتصرف تمامًا مع صديقتي (المرأة) للحظة شعرت بخوف في قلبي ، وزاد

عند الاقتراب منها فتَلفتت هي تمد يدها مصافحةً إياي لم تعانقنِ وتقبلني ولم تبتسم كان وجهها جامد، فقالت لي:

-هناك إحدى صديقاتي سأرسلها لكم، تحدثي إليها من فضلك أوصيك بها.

-فردت: لكِ ما طلبتِ.

كانت عينها تلك العينان التي كنت دومًا أرهما واستكملت لتقول لي أنها كانت ترانا منذ فترة وتُراقبنا، كانت تقرأ ما يدور بخلدي وتجيب عنه دون أن أنبس ببنت شفة، سرت في جسدي قشعريرة وملأ الخوف قلبي، لتتركني ابتعدت حتى وصلت للبوابة الثانية، وما أن وصلت إليها لأشعر بأن عينها تخترقني رغم بعد المسافة وكأني أرهما مجددًا برغم من أني أدير ظهري لها.

حاولت أن أنجز عملي لأهرب إلى الفرع الجديد، وكان لي ما نويت، كنت أهرول في الطريق إلى أن وصلت إلى المكان الجديد ، وقابلت ذلك الزميل لأقص عليه ما حدث ليؤكد لي موتها ودفنها، فكيف لي أن رأيتها وتحدثت إليها، بالطبع لم يأت من طرفها ولم أرها ثانية، ولكنها لازالت هناك في عقلي ولازالت أحب أن أدعو لها.